الاحابيش
والنظام العسكري في مكة
زمن الهجرة

بقلم الاب لامنس اليسوعي

٢

لقد حاولنا ، في القسم الاول من هذا البحث[1] ، ان نزيل شيئاً من الغموض العالق « بالاحابيش » لفظاً وحقيقةً . فتحققنا وجود اولئك العاكر السود في الجيش القُرشي ، واشرنا الى ان التاريخ الرسمي أبعد من ان يُقرّ به. انما هو يجعل من « الاحابيش » عرباً تحالفوا مع قريش . ويأتي اللغويون لنجدة المؤرخين فيحوّلون اسم « الاحابيش »[2] ، عن بلاد الحبش ، الى جبل في جزيرة العرب ينسبون اليه اولئك الاحلاف فيقول عنهم ابن دريد : « حلفاء قريش تحالفوا تحت جبل يقال له حبشي فسُمّوا الاحابيش »[3] . وانتهينا الى اضطراب اللغويين في وضع جبلهم المزعوم من بلاد العرب . وذلك انهم في تحقيقاتهم الحاذقة اللبقة لا يتنبهون للجغرافية . بل قد يخطئون في تعيين ، لا موضع ذاك المحلّ فقط ، بل طبيعته ايضاً حتى ليجوز لنا ان نسأل أهو جبلٌ ام وادٍ ؟[4] انما يكتفي جمهورهم بوضعه في منطقة مكّة ، او في بلاد تهامة . ولا يخفى ما في هذا التعيين المتقلقل من مثيرات الشكّ . وهو ما لاحظناه غير مرّة في مؤلفي « المعاجم » من انصرافهم عن الاخذ بطريقة الاختبار والتحقّق الشخصي في الشؤون الجغرافية ، هذا على ما في معاجمهم من غزارة مادّة ، وسعة معلومات.

---

١) في « مشرق » السنة الحالية ، ص ١–٢٣

٢) ابن دريد : الاشتقاق ١١٩ ؛ ابن هشام : السيرة ٢ : ٨٠

٣) يذكر ابن هشام (السيرة ٢٤٦) وادي الاحباش . فهل يمهّد السبيل في ذلك الى التقريب بينه وبين الاحابيش ؟

وليس من شكّ في ان هذا الضعف النقدي ، بل هذا النوع من مظاهر الكسل العقلي ، يحطّ كثيرًا من قيمة تلك المجاميع . وهذا ياقوت يقترح ، في سرعته المعهودة ، بان يجعل الموضع المقصود في وادي نعمان الاخضر[1] ، نعمان الاراك[2] ، المشرف على المناسك في عرفة ومنى . وما دامت المسألة مسألة اقتراح وفرضيات فلِمَ لا يكون لنا جبال بدل جبل واحد ؟ أوَ لم يمل الازرقي الى التمييز بين حُبْشي ، جبل التحالف ، وحَبْشي وهو جبل آخر لا شأن له ، مؤكدًا ان الاسم المذكور « لم يُنسب الى رجل حبشي »[3] .

وهو معلوم ان الكهّان والعرّافين كانوا ، زمن الجاهلية ، يجنحون الى المرتفعات[4] فينصرفون فيها الى القيام بشعائر مهنتهم الخاصة . فكان لهم حول مكة كثير من تلك القمم تعلوها اماكن العبادة[5] . فلا عجب اذًا بان يكون المفسّرون من الاختصاصيين بشرح « الغريب »[6] قد لجأوا اليها مفتّشين عن اسم يمكنهم ان يقرّبوا بينه وبين « الاحابيش » . ومن يفتّش يجد في تلك الكثرة من اسماء الاعلام الوافرة في مناطق الصحراء . واذًا فقد اكتشف العلماء هذا الاسم محرّفًا بعض الشيء في الآليّات ، او الأيمان القديمة ، التي كان يكثر منها العرب في جميع عصورهم ؛ وكأنهم لا يقنعون بالتعبير البسيط عن افكارهم ، فينفرون عن الاكتفاء بالقول : « نعم ، نعم ، ولا ، لا »[7] ، مسيّرين بطبيعتهم المندفعة واهوائهم المضطربة حركةً وحياةً الى

---

١) اطلب كتابنا *Le Berceau de l'Islam*, I, 69

٢) ياقوت (الطبعة المصرية) ٣ : ٢١١

٣) الازرقي (Wüstenfeld) ٧١ ، ٤٩١

٤) اسد الغابة ٥ : ٧ ؛ السيرة الحلبية ١ : ٢١٢

٥) راجع لائحة تلك المرتفعات الكثيرة في الاربعين الصفحة الاخيرة من مؤلف الازرقي (Wüstenfeld)

٦) وهو تلك الالفاظ القديمة ، والتعابير الغريبة الاستعمال ، الحافلة بها الاحاديث المنسوبة الى النبي . ولا يخفى ان اكثرها مدسوس ، ادخله الواضعون ليوهموا الناس قدم تلك الاحاديث وصحة نسبتها . ولا يزال يغترّ بهذه المظاهر عدد كبير من علماء الاسلاميات ممن ينقصهم التضلّع او يعيب بهم التسرّع والعجلة .

٧) متى ٥ : ٣٧

تأييد كلامهم باليمين ، بل بسلسلة من الأيمان يُرسلونها فطرةً في احاديثهم البسيطة ، وفي اقوالهم الرفيعة ، في قصائد شعرائهم وفي اسجاع كهّانهم خاصة. بل ان بعض السور القرآنية لا تعرف من انواع الخطابة الا القسم[1]. ولقد كان من الطبيعي ان تكثر في هذه الأيمان اسماء المرتفعات التي يأوي اليها الكهّان وحجارتهم المؤلهة ، فيستشهد بها البدوي على صحة قوله[2] فيحلف انه مُقيم على العهد « ما أقام حُبْشي »[3] مثلاً ، او « ما رسا حُبشي »[4] ، او حَبْشي . اما في الأيمان القرشية فكثيراً ما استبدل بحبشي جبل ثور ، او ثبير ، او حِراء[5] ، او ابو قُبيس ، وكلها مرتفعات اقرب الى المجتمع المكّي[6] ، وابعد شهرة بفضل مناسك الحج السنوي.

ولم يكن اللغويون ليطلبوا اكثر من هذه الاكتشافات ، فعلقوا بها ووضعوا قرب حَبْشي بمكان ذاك التحالف العسكري . بيد انهم ، لسوء الحظ ، لم يتفقوا على لفظ الاسم ، هل هو حَبَشي ، أم حُبْشي ، ام احباش ، ام حَبيش ؟ كل هذا يتم عن استقائهم المعلومات من الكتب ، مُعرضين عن طريقة التحقّق الشخصي. وقد مال البكري الى تفضيل لفظ « حَبيش » ، وهو اقلها ورودًا ، ذاكرًا أن « اهل الحديث » يميلون الى حُبْشي . وهذا قوله : « وحبيش جبلٌ بمكة ، وبه سُمّيت الاحابيش حلفاء قُريش ، لانهم تحالفوا تحته ألّا ينقضوا ما أقام حبيش . واهل الحديث يقولون حُبْشي ، بضمّ اوله منسوب على مثال فُعلي ، موضعٌ على عشرة اميال من مكة ، به مات عبد الرحمن بن ابي بكر

١) قابل بقا في القرآن ١٩ : ٦٩

٢) الجاحظ : الحيوان ٤ : ١٥٠ ؛ اسد الغابة ٥ : ٧ ؛ ابن هشام ١٣٢ ؛ ابن الاثير : النهاية ٢ : ٣٧٣ ، ٣ : ٤٥ ، ٤ : ٥٩ ؛ الهمداني : جزيرة العرب ١٢٦ ؛ البكري : المعجم ٦٠٢

٣) البكري : المعجم ٢٦٣–٢٦٤ ؛ ابن قتيبة : المعارف ٣٠٢

٤) ياقوت : المعجم (الطبعة المصرية) ٣ : ٢١١ ، وهو يكتب ايضاً : حَبيش.

٥) الاغاني ١٣ : ٣٩ ، ٨٥. ويتنزل هذا الجبل في كتب « الصحيح » منزلة جبل الطور او طابور في الانجيل. اسد الغابة ٣ : ٢٧٨ ، ٤ : ٦٣

٦) لقد جرسنا تأثير هذه المرتفعات في كتابنا : *Les sanctuaires préislamites dans l'Arabie occidentale*, p. 21

فجأةً[1]. وصحته ، والله أعلم ، حَبيش »[2].

أوَ لا يجوز لنا ، وقد رأينا هذا الاضطراب والغموض والجمجمة ، ان نقول ان اللغويين والمفسّرين جهلوا ، او تجاهلوا ، الاصل اللغوي الحقيقي للفظة « الاحابيش » ؟ فعلقوا بهذه الشروح الضعيفة ، مكتفين بما يبعد عن « أحابيشهم » كل علاقة بالسودان الآتين من بلاد الحبش ، باولئك الذين كانوا يسمّونهم « عبدان اهل مكة » او « سودان مكة »[3] . ولقد كان من همّ العاطفة الوطنية المحلية ان تصل الى هذه النتيجة ، بل الى هذا الغموض والخلط .

ثم ان المذهب المكي ، في عمله الدائب على سدّ الثلم الواهية في مصادر تاريخه الوطني ، لا يأنف ان يلتجئ احياناً الى شعر حسّان بن ثابت ، على الرغم من نزعة حسّان المدنية ، وهجائه اللاذع المقذع في القرشيين[4]. ولم يتنبه ارباب هذا المذهب ، مؤرخين كانوا او مفسّرين ، لما يجرّه عليهم الاستشهاد بشعر حسّان ، او انهم لم يفقهوا كلّ الفقه هذا الشعر القديم ، لكثرة ما تكاثف عليه من الغموض ، ولم يمرّ على نظمه قرنٌ كامل . وهكذا ، على الرغم مما اتصف به مؤلفو « السيرة » من حسّ لغويّ دقيق ، تراهم لا يميزون بسهولة بين المقطع الهجائي والقصيدة التاريخية . هي هفوة وقع فيها ابن هشام ، مَن عرفناه عالماً بالشعر القديم ، مدقّقاً في قبول صحة نسبته[5].

ولا يخفى ان ديوان حسّان سجلّ شامل ، بل شاهد حيّ ، لمظاهر تحقد الانصار على المهاجرين ، اولئك القرشيين الذين احتلّوا مدينتهم ، فضيّقوا عليهم .

---

١) وفي الاغاني اشارة الى هذه الحادثة ١٤ : ٧٠ ؛ ١٦ : ٩٦ ؛ ويقال ان قبر عبد الرحمن المذكور كان معروفاً هناك . اما الازرقي ، ٤٢٣ ، فيقول : « مات بالحبشي فلم يُحمل الى مكة » . وقوله حجة في تاريخ المنطقة المكيّة . ولم يزد من اتى بعده على ان تقلوه . قابل بما في اسد الغابة ٣ : ٢٠٦

٢) البكري : المعجم ٢٦٣–٢٦٤

٣) اسد الغابة ٥ : ٨٣ في الكلام عن وَحْشي .

٤) ابن هشام : السيرة ٥٧٢ ، ولتقابل بما في الصفحة ٥٢٢

٥) من ذلك اهتمامه بالتدقيق في صحة الشواهد في الصفحات ٤٢٧، ٤١٦، ٤١٨، ٤١٩ ، ٤٢١، ٤٦٣، ٤٦٣ . . .

وفي هذا الديوان مقطع ، هو الحادي والستون من طبعة هيرشفلد[1] ، يلتمح الى بعض الحوادث الحربية في حياة النبي ، واذا فهو يهمنا في الموضوع الحاضر . بيد ان ابا زيد الانصاري[2] ينفي ان تكون القصيدة لحسان ، فينسبها الى كعب بن مالك ، وهو من شعراء المدينة ايضاً . ولا يستغرب المطالع هذا التردد في نسبة الشعر ، فهو طبيعي يستند الى المبررات العديدة من اضطراب التقليد الشعري وضعف الثقة ببعض الرواة ، ولاسيما في ما خص شعر حسان ، وقد كثر فيه المنحول . ومهما يكن من أمر ، فان المقطع قديم ، مدني الاصل . وهو « نقيضة » يرد بها الشاعر على احد شعراء مكة ، هُبيرة بن ابي وهب ، « فينقض » قوله . ولنحذر أن نغتر كثيراً بآثار شعراء قريش قبل الفتح[3] . انا نحن نقبلها بتحفظ ، مشيرين الى ما يهمنا من هذه القصيدة المنسوبة الى هُبيرة بن ابي وهب ، والمؤلفة من تعابير متنوعة المصادر[4] . وهو هذا البيت :

سُقنا كتائبَ من أطراف ذي يمنٍ عُرض البلاد على من كان يُزجيها (٥

ولا يخفى ان النبرة الفخرية كافية وحدها لتعيين زمن انشاء القصيدة . فهي تنقلنا الى عهد تسلط الخلافة القرشية واستبدادها . اما قبل ذلك ، زمن صدر الاسلام ، وهو الزمن المزعوم لانشاء القصيدة ، فلم يكن بين معاصري ابي سفيان من يغتر هذا الغرور بسيادة المكيين على جيرانهم من أبناء البدو . بيد ان صفات العلو هذه هي التي دفعت جُمّاع حوادث السيرة الى الاخذ بالقصيدة وادخالها في مجموعتهم . وهاك الآن جواب حسان ، او كعب ، في النقيضة[6] ، ويهمنا

---

١) في مجموعة « *Gibb Memorial Fund* » ، وهذه الطبعة ضيقة النقد تظهر بحاجة الى مزيد تدقيق .

٢) ابن هشام : السيرة ٦١٢ . كان جدّ ابي زيد ، صاحب الغريب او صاحب النحو ، من الصحابة (اسد الغابة ٥ : ٣٠٢) ؛ فكان لا بدّ ان يعرف ابو زيد هذا تاريخ الانصار الادبي .

٣) قابل ، في ما خصّ مراثي قتلى بدر ، بملاحظة ابن هشام النقدية في السيرة ٥٢٤ ، ثم ٤١٦ ، ٤١٨ ، ٥٢٤ ، ٥٢٨ ، ٥٣٠ .

٤) قابل بالنقائض ابن الاثير : النهاية ٣ : ٥٣ ، ٤ : ٩٣

٥) ابن هشام : السيرة ٦١٢ ؛ وكانوا يتخذون العسكر من الازد احياناً ، وهم يمنيون ؛ راجع اسد الغابة ٣ : ٢٢٨

٦) ديوان حسان ٦١ : ١-٣

منه بيته الاخير خاصة :

سُقتم كنانة ، جهلاً ، من عداوتكم ، الى الرسول ، فجند الله مُخزيها !
اوردتموها حياضَ الموت ، ضاحيةً ! فالنار موعدها ، والقتل لاقيها .
انتم احابيش جُبِّتم بلا نسبٍ ، أغثة الكفر غرّتكم طوافيها !

وان لفظ « الاحابيش » الوارد في البيت الثالث يظهر غريباً نادراً في الشعر الجاهلي وفي شعر صدر الاسلام نفسه[1] . ولهذا لفت نظر ارباب الحديث منذ اقدم عصورهم .

ومما تجب الاشارة اليه ان كثيراً من العلماء[2] لا يزالون يتصوّرون الحديث الاسلامي ينشأ موازياً تطوّر المذهب القرآني ؛ فيرتكز على سلسلة من الاخبار والحوادث راقية مباشرةً الى النبي ، مستندة ، في حلقات صحيحة متتابعة معدّلة ، الى طائفة من الصحابة حفظت لنا المجاميع الاختصاصية ، كأسد الغابة واصابة ابن حجر ، تراجم حياتهم المتضخمة بالروايات والاساطير ، المتكيّفة بآراء الجامعين بل برغبات وميول القبائل المختلفة ، وكلها حريصة على ان يكون لها من يمثلها بين اعيان الاسلام الاول . على ان هذا التصوّر لا يقوى على النقد . وقد كان لنا ان نعرض له في شيء من التبسُّط[3] ، فنبيّن ما في بناء الاحاديث من وهن وتضعضع وتكلُّف ، وما كان يرمي اليه من غاية هي تفسيرية عقائدية قبل كل شيء ، لا تاريخية ولا جغرافية . وها اننا نرى برهاناً جديداً لرأينا السابق في هذا البحث . ومما لا شكَّ فيه ان غيرة التابعين على تأليف حياة للنبي جعلتهم ينصرفون باهتمام وحماسة الى درس الآداب الجاهلية . فأقبلوا يجمعون تلك الاشلاء المتفرّقة من الآثار القديمة فيؤلفون بينها ويوافقون ، واذا بها تخرج دواوين سوية للشعراء القدماء . واذا بهم يستغلّونها موادّ صالحة

١) فلا يظهر الا في قصيدة لكعب بن مالك (ابن هشام : السيرة ٦١٤) ، وفي قصيدة لشاعر من غفار (السيرة ٨٠٤) ، ان كانت صحيحة النسبة .

٢) وقد يلتم بعضهم باسقاط العهد المكّي ، راجع رأي ولهوسن في *Berceau*, I, Introduction, VII

٣) في ؛ مقالنا *Coran et Tradition : comment fut composée la vie de Mahomet* extrait de *Recherches de science religieuse*, I, 1910

لتأليف سيرة الرسول . وهم ، في استغلالهم هذا ، ما كانوا ليغفلوا تلك المقاطع الشعرية الهجائية المتداولة بين مسلمي الجيل الاول منسوبة الى غير واحد من اولئك الذين كانوا « يناضلون عن رسول الله »[1] ، واشهرهم المثلث المدني : حسّان ، وكعب ، وابن رواحة .

على انهم توقفوا هنيهة في شروحهم واستنتاجاتهم امام لفظة « الاحابيش » الغريبة ، فأخذوا يقابلون ويوافقون ويخرّجون . ونحن نعرف لهم اليوم هذه الجهود باطلاعنا على مجموعات « غريب الحديث » ، فنتحقق كيف توصلوا فرأوا في اللفظة تعبيراً فنياً عسكرياً كانت تستعمله قريش للدلالة على جنودها من كنانة . ولا يخفى ما في هذا الشرح من التزلف الى المكيين بالاشارة الى اقرار سيطرتهم القديمة . اما غاية الهجاء المدني — وسواء أكان حسّان أم كعباً ام ابن رواحة — فتظهر بعيدة عن هذا الشرح والتخريج . لقد اولى اللفظة ، هو وحده ، معناها الحقيقي المتداول في ذلك العصر . فاليه وحده يجب ان نستند في فهم هذا المعنى . يقول في بيته المذكور ، ان ذاك الجيش الذي ألفته قريش ، في محاربة النبي ، يمثل حشداً من السود ، يسيرون بضجتهم وجلبتهم متجمّعين ، دون ترتيب ، فهم اقرب الى « الاحابيش » عبيد افريقية منهم الى الرجال الاحرار ، الى العرب الخلّص الذين يجتمعون لنداء الدم ، بفضل النسب ، فيحتشدون حول الراية مدافعين عن قبيلتهم[2] . ولا يخفى ما هناك من توافق بين هذا القول واللهجة الشاملة في القطعة الهجائية ، وما فيه من تلميح دقيق ينال ، ضمناً ، من تعصّب سادة مكة اعداء النبي واعداء الانصار . والمعروف عن حسّان أنه كان يبالغ في هذا النوع من الهجاء « فيقبل على الانساب »[3] والأعراض ، ولهذا مال اكثر النقاد الى جعله هو صاحب القصيدة المذكورة ، لا كعباً ولا ابن رواحة .

---

١) راجع اسد الغابة ٣ : ١٥٧ ؛ ٤ : ٢٤٨ .

٢) هذا معنى : « جُمّع بلا نسب » . ويرجّح التقليد ان « النسب » خاصة العرب وحدهم ، اما الانباط والاعاجم فيُعرفون بالنسبة الى قريتهم .

٣) اسد الغابة ٤ : ٢٤٨ .

وها ان ابن هشام يفيدنا شيئاً في تأليفه الظاهر الاهتمام بالدقة التاريخية[1] ، فيمهد لنا السبيل لحلّ مقبول . يميّز هذا المؤلف ، بل يدوّن ، على الارجح ، ما رآه في الكتب التي نقل عنها من تمييز بين « احابيش » قريش ، وحلفائها العسكريين ... فيقول « اجتمعت قريش باحابيشها ومَن اطاعها من قبائل كنانة واهل تهامة ... »[2] . ولنحفظ هذا التمييز المهم ، منتقلين الى نصوص تبدو اوضح واوفر دلالة على ما قدّمنا . هي نصوص دونها الواحدي ، والطبري ، والواقدي[3] ، وفي بعضها ذكر جيش « استأجر (صاحبه) الفين من الاحابيش ... سوى مَن اجاب له من العرب »[4] ، وهناك غيرها من النصوص يُميّز فيها بين الاحابيش ومأجورة بني بكر من الغفاريين . ولا يهمنا ، في هذا ، ان يكون كلّ الجتماع والمؤرّخين دقّقوا في الفرق بين الجيشين ، او انهم بالعكس لم ينتبهوا للتمييز ، فخلطوا بين الاحابيش ومأجورة العرب . انما المهم ان يكونوا نقلوا هذا التمييز عن الروايات القديمة ، شأنهم في كل ما يؤلفونه على ذاك الاسلوب التقليدي الاسنادي في تدوين التاريخ القديم . ولقد كان من فضل هذا الاسلوب — على ضعفه ونقصه ودلالتـه على الابتدائيات في فنّ الكتابة — انه سهّل علينا الوصول الى النصوص الاصلية[5] .

ينتج من كل ذلك ، على مـا نرى ، ان مجموعة الوثائق في الموضوع ، المنظّمة في القرن الاول للهجرة ، كانت تشير الى وجود عناصر غير بدوية في

---

١) من مظاهر الاهـتمام بالدقة التاريخية في سيرة ابن هشام جهد المؤلف في تمحيص الشواهد الشعرية ، والاشارة ، وان بطريقة خفية ، الى شكّه في صحة بعضها .

٢) ابن هشام : السيرة ٥٥٦ ؛ قابل بما في ٦٧٥ ؛ الواقدي ١٩٩ ؛ الطبري ١ : ١٢٨٤ ، ١٢٨٥ ؛ الاغاني ١٤ : ١٢ ؛ ابن سعد : الطبقات ٢ : ٤٧ « احابيشهم ومن تبعهم من العرب » ؛ السمهودي : الوفاء ١ : ٢١٤ .

٣) راجع الحاشية السابقة وانظر ابن الاثير : الكامل (الطبعة المصرية) ١ : ٢٤٧ : كنانة جميعها والاحابيش .

٤) الواحدي : الانساب ١٧٧ ، قابل بما في الطبري ١ : ١٦٣٥

٥) وذلك على خلاف طريقة ابن خلدون التي يرمي فيها الى الجمع بين « الروايات » المختلفة والتوفيق بينها ، ليجعل منها كلها رواية واحدة متناسبة الاقسام .

قوّات مكة العسكرية. وهكذا كانت وحدات « الاحابيش » تتألف ، دون شك ، من جنود سود . على ان هؤلاء الاحباش كانوا يختلطون بالبدو ، بعدد من المقاتلة عربيي الاصل ، اقل سواداً من ابناء خام . ولقد ذكرنا من هؤلاء ، في بد. مقالنا الاول ، مَن كان العرب يدعونهم بالخلعاء ، والصعاليك ، والفتّاك ، واللصوص ، والشياطين[1] . واكثرهم من بني كنانة لجأوا الى ارض الحرم ، حول مكة ، ولم يكن لهم من عمل الا انتظار اول طالب فيؤجرونه سيوفهم وتباعهم . وليس ببعيد ان يكون من هؤلاء الشذّاذ اولئك المغامرون المُلحقون بكتائب قريش ، والذين يشير اليهم قدماء المؤرخين عندما يذكرون رجال القبيلة « ولفّها »[2] . يأتي بعد ذلك رجال القبائل المجاورة لمكة ، وقد دعاهم وقتياً الى حلفها وحدة الاصل والرغبةُ في السلب. ولقد كان سادة قريش يأخذون من هؤلاء البدو ، احلافٍ ومجاورين ، رجال القيادة والترتيب او رجال الملاك العسكري ، كما نقول اليوم ، فيعهدون اليهم في تنظيم شؤون ذاك الجيش الاسود . فاتّسع ، آذ ذاك ، مدلول لفظة « الاحابيش » حتى أُطلقت على افراد الجيش انفسهم ، وعلى مَن كان يدبّره ويقوده من المؤلفين او الضباط العرب[3] . وهذا على نحو ما نرى في ايامنا من ان لفظة الكتائب السنغالية ، او « العسكرية » (*askari*) تُطلق ، لا على افراد تلك الكتائب الافريقية وحدها ، بل على مَن يديرها ، ويدبّرها ، ويقودها من ضباط الاوربيين . ويجب ألا ننسى ما يدل عليه لفظ « الاحابيش » من كثرة الحامّين المستعبَدين في مكة اذ ذاك . وهو امر توضحه النصوص المشيرة بصراحة الى ان امثال وَحْشي[4] ، وصُوّاب ، وابي رُوَيحة ، كانوا « من سودان مكة » او « من عبدان اهل مكة » .

---

١) راجع « مشرق السنة الحالية » ، ص ١–٣

٢) الواقدي ١ : ٣٠ ، ٢١١ ، ٢١٣ ؛ الاغاني ١٩ : ٧٦ ، ٧٩ ؛ العقد ٢ : ٤٧ ؛ وقابل بما في الاغاني ٩ : ١٧ ؛ ويجب ان نضيف « الضرائط » ، كما في اسد الغابة ٤ : ٢٨٣ ؛ الاغاني ١٩ : ٧٥ ؛ ابو زيد : النوادر ٥٤ ؛ الجاحظ : كتاب الحيوان ١ : ٢٢ ، ١٧٧

٣) ولهذا رأينا عدداً من البدو المخلّص ، يُدعون « بالاحابيش » .

٤) وهو اسم كثير الانتشار بين « سودان مكة » .

وقد كان لهؤلاء الاحابيش ، في نظامهم المحدَّد ، سيِّد خاص يُدعى « بسيِّد الاحابيش » ، يقوم بالقيادة العليا ، ويكون عربيًّا من تهامة ، منتسباً ، على الغالب ، الى بني كِنانة[1] . الا اذا كان رجال العسكر البيض كلهم من خزاعة ، فيجب اذ ذاك ان يكون « السيِّد » خزاعياً[2] . وهو تقليد كان معروفاً قبل ان تحالف الخزاعيُّون مع محمد[3] . ولا يخفى ان المنافسة بين القبيلتين المشهورتين بتغذية جيش « الاحابيش » برجالهما ، وهما غِفار واسلم ، كانت تبلغ اشدَّها احياناً ، فتضطرّ السلطة الى تعيين « سيِّدَين » للاحابيش من كل قبيلة سيِّد[4] .

ولم يكن مركز السيد المذكور بالهيّن ؛ ولم يكن السيد نفسه بالمتساهل او المتغافل عما يوليه منصبه من سلطة ، وشموخ ، وصراحة في الكلام تتجاوز احياناً الى القحة ، لا يهاب احداً من امثاله البدو ، ولا من القرشيين انفسهم ، وان يكن ابا سفيان . بل تراه لا يتنازل عن زهوه ، ولا يخفي تلك العنجهية العابثة ، النازعة الى الاستقلال بالرأي والانفراد بالعمل ، الماثلة من اشهر خصائص البدو[5] . تفهم ذلك اذا ما عرفنا ان ارباب « البطحاء » من سراة قُريش ، وقد كان لهم وحدهم حقّ عقد المجالس والاندية في « فناء » الكعبة[6] ، دُفعوا الى مشاركة بني غفار هذا الحق ، لما قام به هؤلاء من خدم جليلة اثناء الحروب المتتابعة[7] . هذا ، ويظهر من تاريخ السنوات الستّ الحافلة بالوقائع المطّردة بين

١) ابن هشام : السيرة ٣٤٥ ؛ العقد ٣ : ٤٧

٢) الاغاني ١٩ : ٧٦ ؛ اسد الغابة ٢ : ١٦

٣) وبعد المحالفة ايضاً ، لان الحلف لم يشمل جميع بطون خزاعة (اسد الغابة ٢ : ١٦) ، بل ان منهم ، كبني المصطلق ، مَن حاربوا النبي فكسرهم شرّ كسرة .

٤) ابن الاثير : الكامل (الطبعة المصرية) ١ : ٢٤٨ . ويذكر الاغاني (١٩ : ٧٩) سيداً للاحابيش قُتل في الحرب .

٥) ابن هشام : السيرة ٥٨٣ ، وقابل بما في ٣٤٥–٣٤٦.

٦) وهو معنى التعبير الجاري : « وقريش في انديتهم » اسد الغابة ٢ : ٢٥٧ ؛ ابن هشام : السيرة ٢٠٢ ؛ ثم اسد الغابة ٤ : ٥٥، ٥٦، ٥٨، ، وقابل بما في كتابنا *La Mecque à la veille de l'Hégire*, p. 87... ; 136

٧) اسد الغابة ٣ : ١٥٠ – ولم يكن لبني خزاعة ، على ما لهم من منازل في مكة ، شيء من هذا الحق في فناء الكعبة . والسبب ان القرشيين ، لو سمحوا لخزاعة بشيء من ذلك ،

النبي واقاربه المكيين ان « سيادة » الاحابيش كانت تنتقل من واحد الى واحد، فلا تطول مدة «السيد » في منصبه. والسبب ان المكيين، على حاجتهم الى معونة اولئك البدو ، لم يكونوا ليغفلوا عما يتصف به سادة القفر من نزوع الى الاستبداد بالسلطة ، وميل الى العبث بالاوامر ، فكانوا لا يدعون السيد منهم مدة طويلة على رأس الجيش خوفاً من سيطرة عسكرية . وهكذا عملوا على اضعاف نفوذ السيد، إلا في ما خصّ قيادة الجيش اثناء الحرب، قيادةً زمنية وقتية. وهو ما تشير اليه النصوص القديمة بقولها: « وكان يومئذٍ سيّد الاحابيش»[1]. ولا يخفى ان هذا التقلقل في المنصب، وهذه المراقبة الغيرى من قبل القرشيين لمن اوضح الادلّة على التقاليد الديموقراطية ، وعلى تنبّه المكيين وحذرهم المتيقّظ[2].

ثم ان هؤلاء التجار الحاذقين كانوا ابعد من ان يغفلوا عما قد يجرّه من خطر ذاك الجيش الاسود المسلّح ، اذا ما تُرك دون رقابة ولا ضبط . وهم لم ينسوا بعد ما اتّصف به جدود احابيشهم، ابناء مملكة أكسوم القوية، من بطش وتنكيل ، عندما اكتسحوا الحجاز ، عام « الفيل » ، فاحتلّوا مكة نفسها . تلك الذكريات ، على غموضها ، كانت جديرةً بان تُثير في اذهان السودان المتقلقلة نزعات قد تكون شديدة الخطر على اهل مكة . ولا يخفى ان مملكة الحبش ، اذ ذاك ، كانت دولة حربية شديدة الوطأة ، لا تزال تتحيّن الفرص للعودة الى التدخل بشؤون جزيرة العرب[3]. هذه الدولة التاريخية القوية، الطموحة غير تلك الدولة الحبشية الوهمية، المتولّدة من تصوّرات جمّاع كتب «الصحيح»،

لتعرّضوا لخطر تقدر مبلغه اذا ما عرفنا ان خزاعة كانت صاحبة السدانة في الكعبة وسائد مكة ، قبل ان يغتصب قُصيّ منها هذا الحقّ . واذًا فهي لا تزال تأسف لفيئته وتحنّ الى ماضيها القريب.

١) ابو سعد : الطبقات ٢ : ٧٠ ؛ الاغاني ١٤ : ٣٠ ، ١٩ : ٧٩ ؛ ابن هشام ٢٤٥ ، ٧٤٢ ؛ العقد ٣ : ٤٧ ؛ وكان من اشهر اولئك السادة « سيّد القارة » ؛ البخاري : الصحيح (طبعة Krehl) ٣ : ٥٩ ؛ والقارة بطن من كنانة مشهور بريشه Wüstenfeld, *Register*, 419 ؛ الطبري ١ : ١٥٣٨ ؛ اسد الغابة ٣ : ٢٠٧ ، ويظهر فيها ان القارة من أسد خزيمة ، قابل بما في ابن هشام ٢٤٥

٢) مسلم : الصحيح ١ : ٤٨٦ ٣) راجع كتابنا *La Mecque...*, p 290

يحكمها نجاشي ميّال للاسلام[1] ، له اخ يأتي المدينة متطوّعاً لخدمة النبي[2] . يفيدنا التاريخ ان رجال الدولة الحبشية كانوا ينازعون المكيين انفسهم ، وفي مدينتهم مكة ، تجارة الهند ، وكان اسطولهم يسيطر على البحر الاحمر . لهذه الاسباب وما يماثلها كان القرشيون شديدي الحذر من رجالهم السود ، فعملوا على ضبطهم بانشاء ذاك النظام العسكري الذي اشرنا اليه . فاحاطوا الاحابيش بعدد من الضباط والقوّاد العرب مسؤولين عن اخلاص رجالهم وطاعتهم . وهو ما قام به اولئك « السادة » من بدو تهامة . ولقد كان من غاية القرشيين ، فوق ضبط الاحابيش ومراقبتهم ، ان هذا النظام يعزّز العاطفة الوطنية في اولئك البدو ، فيدفعهم الى الالتفاف حول قريش ، متناسين احقادهم وثاراتهم .

ولم يختصّ « الاحابيش » بسيدهم المستقلّ فقط . بل كان لهم ، فوق ذلك ، رايتهم الخاصة ، يحاربون وراءها الى جانب القرشيين[3] . وكان لهم ايضاً ميزات متعدّدة مدوّنة كتابةً في معاهدة تنصّ بالتفصيل على كيفية معاونتهم للجيش القرشي ، وعلى مدة خدمتهم العسكرية ، وما يتمتعون به من حصانات وامتيازات ، وما يتناولون من مرتّبات مقرّرة . حتى اذا اراد القرشيون ان يتملّصوا من تنفيذ شيء من هذه الشروط ، هاج الاحابيش فذهب سيدهم ، وانذر رؤساء قريش باحترام شروط الحلف والمعاقدة[4] ، مطالباً لرجاله بحقهم من الحماية والمنعة في ارض مكة[5] . وكان العرب من « الاحابيش » اعلق ببدويتهم من ان يتصاغروا للحضريين من اهل مكة . هم يعاونونهم في الحرب ، ولكنهم لا يرضون بان يعاملهم المكيّون معاملة المأجورين . فوجب على اهل مكة ان

١) ابن هشام ٧١٧

٢) اسد الغابة ٣ : ١٤٤ ، ٥ : ٣٢٣

٣) الواقدي ١٩٩ ، ٢٠١

٤) قائلاً : « حالفناكم وعاقدناكم . . . » الطبري ١ : ١٥٢٩ — يذكر ابن جبير في رحلته (*Travels*², 97,131) ان حرس امراء مكة الخاصّ كان ، في عصره ، مؤلّفاً من السودان . ولم تكد الحالة تتغيّر من ذاك العهد الى يومنا . راجع Burckhardt, *Voyages* I, L. Roches, *Dix ans à travers l'Islam*, 1834-1844, p. 110 ؛ ثم 152, 328, 329

٥) اسد الغابة ٣ : ١١٦

يترضوهم دائماً ، ولاسيما « سادتهم » ، لئلا يثوروا ويُثيروا الجيش معهم ، او لئلا « ينفروا بالاحابيش » ، كما كان يُقال[1] .

٣

كل ما تقدّم من التفاصيل يقودنا بالفكر الى قرطاجة ، الى البندقية ، الى تلك الجمهوريات التجارية التي تشترك مع مكة الجاهلية في الكثير من مظاهرها . ولا يجد الباحث صعوبة في ان يستخرج من النصوص المتعلقة « بالاحابيش » موادّ صالحة لتأليف رواية قرشية لا تبعد في شيء عن سالّمبو « *Salammbô* » فابن جُدعان ، وابو سفيان[2] ، وغير واحد من زملائها « الاشراف » ، سراة « البطحاء »[3] ، يحلّون بسهولة محل ابطال فاوبير من امثال أميلكار ، وهانون ، وغيرهما . وفي تلك البيئة الجاهلية الخليعة ، التي كثيراً ما شكا القرآن من عبثها وفساد اخلاقها ، لا يندر ان يرى الباحث واحدةً من « ذوات النِطاقين »[4] العديدات ، تقوم مقام بطلة الرواية المذكورة[5] . فالمحيطان يتشابهان ببسيطرة الماليين من ارباب التجارة ، واصحاب رؤوس الاموال ، وبحاجتهم جميعاً الى حماية الجنود المأجورين .

١) وهو معنى : « لأنثرنّ بالاحابيش » ، ابن سعد : الطبقات ٤ : ٧٠

٢) قابل بما في الاغاني ١٩ : ٧٥

٣) لا تختصّ لفظة « البطحاء » بالدلالة على « مجرى السيل » ، انما تفيد ايضاً « الحصى » او « الحصباء » . قابل بما في اسد الغابة ٤ : ٤٣ : « فبحث بيده في البطحاء » . نذكر هذا لنبرّر شرح هوبير في رحلته : Ch. Huber, *Voyage dans l'Arabie centrale*, p. 54 (extrait du *Bull. Soc. Géogr.* de Paris, 1884-1885) فنردّ على نقد وجهه اليه قلم التحرير في المجلّة المذكورة . ولا شكّ في ان هوبير ، المتضلّع من اللهجة البدوية ، دوّن الشرح الذي سمعه في ذاك المكان ، فلم يخطىء القصد مستعملاً « الشامل بدل المشمول » كما نرى في تعليق المجلّة . وليقابَل ذلك ايضاً بهذا التعبير في اسد الغابة ٤ : ٧٣ : « اناخ بالأبطح ثم كوّم كوماً من البطحاء » ، وبما في السهودي : الوفاء ١ : ٩٤ ، ٣ : ١٦٤ : ابن الاثير : النهاية ١ : ٨٣ ، ٤ : ٢٣٨ ؛ شيخو : شعراء النصرانية ٧٧١

٤) راجع كتابنا في *Fāṭima...* p. 5

٥) ولنشر ، جذة المناسبة ، الى اولئك الفتيات البدويّات اللواتي كان يُعهد اليهنّ ، في ميدان الحرب ، بحفظ التبّة المقدّسة او بيت الحجر المؤلّه . اطلب بحثنا في *Le culte des bétyles...* dans *L'Arabie occidentale avant l'hégire*, p. 112... 124

ولنترك هذه الذكريات القديمة الغارقة في غموض التاريخ الجاهلي ، منتقلين الى مظهر حديث في الجيوش العصرية لا يخلو من شبه بنظام الاحابيش - هو نظام الفرق الايطالية المعروفة « بالعساكر » « *askaris* » او نظام جيوش المستعمرات. وفيها تتألف الجنود من السودان، وضبّاط الجيش من البيضان، كما كان في جيش الأحابيش ، ان جاز لنا ان نطلق لفظة البيضان على بدو الحجاز السُمر الالوان. وقد اشرنا الى ان جميع الضبّاط والقوّاد والموظفين في ذاك الجيش الافريقي ، من المدعوّين بالسادة ، والرؤساء ، والعرفاء ، كانوا كلهم من العرب ولهم وحدهم الحق « بالأنفال » او اسلاب العدو[1]. وقد كان من الطبيعي ان تفتكر قريش لتعيين هؤلاء الضبّاط بمن كان يلجأ الى حرمها من الخلعاء والمتشرّدين كالبرّاد ، وابي الطحان ، وحاجز ، والحرث بن ظالم ، فتسلّحهم[2] وتعيّنهم على رأس أحابيشها . ولما كانت « الحرب خدعة »[3] ، ولما كانوا اشهر ما يشتهرون به من الصفات الخداع والجرأة ، كان لا بدّ ان يتكل عليهم رجال الملأ ، او مجلس القبيلة الاعلى ، فيتنادون من انحاء الجزيرة ، ويؤجرون الملأ سيوفهم ، متضجّرين من اقامتهم بالسكينة والراحة في ارض الحَرَم[4] . ولم تكن مكّة لتجهل قيمة مساعديها هؤلاء ، فلا تبخسهم حقّهم ، بل تعاملهم معاملة الضيف الكريم والجار العزيز ، وان اساء الجوار[5] ، فتغضّ النظر عن المساوئ وتنعم عليهم بلقب « حلفاء قريش » ، وهو لقب يجرّ منافع ماديّة ، وواجبات حربية[6] . وكان من فضل هذا التدبير أن يشغل هؤلاء الشذّاذ فيصرف الى طريقة نافعة

١) وقد يعد السادة عبيدهم بالإعتاق ، اذا ما انتصروا ، كما جرى لوحشي في أُحد . وهو ما كان يُجرى عليه في جيوش النبي ايضاً . اما الفائتة من الأحرار فكان لهم الحقّ بسهمهم في الاسلاب .

٢) الاغاني ١٠ : ٢٨

٣) راجع *Berceau*, I, 248 ، وكثير من هؤلاء الحلفاء كانوا يسمّون الجواد في ركضه، اسد الغابة ٥ : ١٧٨ ؛ *Berceau*, I, 248 وتراجم اللصوص تتوسّع معجبة بهذه الحيل

٤) كابي الطحان ، راجع *Berceau*, I, 172

٥) قابل بما في الاغاني ١٩ : ٧٥ عن موقف البرّاد في مكة ، وكيف جرّ القبيلة ، بافعاله وتمرداته ، الى حرب الفجار .

٦) راجع ابن سعد : الطبقات ٣ . وكان حلفاء الانصار المديدون من اليهود يشتركون في «مشاهد» النبي ، ولنكتفِ بالاشارة الى حلفاء بَلِي، اسد الغابة ٣ : ٢٢٧ ، ٢٤٧ ، ٢٦٩ ، ٢٩٨ ،

ميلهم الفطري للغزو[1] .

ثم ان مكة كانت تستلحق غفارًا ، وخزاعة ، وغيرهما من القبائل البدوية البطّاشة بما تدفعه لسادتها من مال ، فتستخدمهم جميعاً في المحافظة على مصالحها الخاصة . قد لا يكون في هذه التدابير مظاهر جليّة للشجاعة القرشية ، ولا دلائل على جرأة اولئك الرأسماليين ، ولكنها تُشير الى ما اتصفت به قريش من دهاء وحذق ومرونة في السياسة والادارة ، حتى اصبح من نوع الامثال الكلام عن « أحلام قريش » و « حلماء قريش »[2] .

أوَ هل نستغرب ، بعد كلّ ما تقدم ، الّا يكون مدوّنو « السيرة » انتبهوا لجميع هذه الامور المتشعبة المتشابكة ، وهم الذين أثّرت فيهم العواطف القومية المتأخرة ، فقادتهم الى ضيق المجال في البحث والتصوّر ، والى الايمان الدائم بسيطرة قريش[3] حتى في العصر الجاهلي ! أوَهل نستغرب ان يكون المستشرقون انفسهم أخذوا بهذا العمل ، فظلّوا مدّة طويلة لا يشعرون بضرورة النقد الدقيق في درس أصول ذاك التاريخ ![4]

ولقد عرضنا لهذا الموضوع في كتابنا « فاطمة وبنات محمّد » (ص ٢٩) فاوردنا تحفّظات قليلة في ما خصّ تلك الاعمال الفائقة قدرة البشر العاديّين ، ينسبها المؤرّخون ، دون احتياط ، الى ابطال الهاشميين ، ولاسيما علي بن ابي طالب[5] . ويمتاز الواقدي[6] الشيعي ، بين جميع مدوّني « المغازي » ، بازدرائه كل

---

٥ : ١٠٦ ، ١٤٤ ، ١٤٦ . وهناك حليف ثقفي يحارب مع قريش في حُنين ، اسد الغابة ٤ : ٧

١) راجع *Berceau*, I, 177

٢) اسد الغابة ١ : ٢٧١ ، ٥ : ٣١ ؛ حلم ابي سفيان ، في الاغاني ٥ : ١١

٣) ولنا الامثلة العديدة على الايمان بهذه السيطرة القرشية ، كقول ابن هشام : « كانوا إمام الناس وهاديهم » (السيرة ٩٢٢) ؛ قابل بما في ابن سعد : الطبقات ١ : ٣ ؛ ابن الديبع : تيسير الوصول ٣ : ١٠٨ . وقد درسنا الموضوع في كتابنا عن « يزيد »

٤) قابل بما في C. de Perceval, *Essai*, I, 253 ; Sprenger, *Mohammed*, index s. v. *Aḥābīš* ; Grimme *Mohammed*, I, 106 ; Cl. Huart *Hist. des Arabes*, I, 144

٥) راجع *Fāṭima*, 45 ، اما ترجمة علي الواردة في اسد الغابة ٤ : ١٦ فاكثرها مستندة الى النصوص الشيعية .

٦) الواقدي ١٧٩ — وفيه التعبير : « شموني . . . من الاحمر والاسود » وقد يدلّ

قياس في مروياته[1]. اما الآن ، وقد دققنا بعض الشيء في فهم المؤسسات العسكرية المكية ، فنتساءل ألا ينبغي لنا ان نزيد من تلك التحفظات ! ونستفيد من هذه الابحاث التمهيدية في نظام مكة الجاهلية ، موادّ لنقد « السيرة » نقدًا داخليًا. وقد قُيّض لنا ان نبحث في « السيرة » ، في مقالٍ نشرناه منذ ربع قرن بعنوان « عُمر محمد وطريقة التاريخ في السيرة »[2] ، وقلنا فيه عن هذه المجموعة : « لا نرمي الى طرح كل شيء . وبدل ان نقلب هذا البناء الضخم الذي عمل الحديث على رفعه ، لنكتفِ بتفكيكه حجرًا حجرًا ، فنفحص قيمة ما استُعمل فيه من موادّ . هو عمل عملٌ ، ولكنه ضروري ! » ولنا الأمل بان هذا البحث في « الاحابيش » يأتي ببرهان جديد يبرّر قولنا السابق . وعلى مَن تقع التبعة ان عِيل هذا البرهان على اضعاف الثقة بتلك الموادّ الاسلامية القديمة ؟

ثم اذا استندنا الى الاقوال الرسمية المتداولة ، نرى عليًا ينشأ في كنف محمد ، مَن عرفناه بميله طبعاً الى السلم والطمأنينة[3] . واذًا فلم يكن لهذا المحيط الهادئ ، محيط خديجة وبناتها[4] ، ان يعزّز تلك النزعات الحربية التي نراها ، بعد ذاك ، في زوج فاطمة . ولا يخفى انه كان مِن آخر مَن هاجر ملتحقًا بالنبي في المدينة . وهو لا يظهر ، قبل وقعة بدر ، في اي معركة من تلك المعارك البسيطة ، المعروفة بالغزوات ، التي كانت تحدث من وقت الى وقت فتبدّد شيئاً من ملل العهد الاول ، عهد الاستقرار في المدينة . اذا استندنا الى هذه المعلومات ، وكلّها مستقاة من « السيرة » ، ومن اجدر كتب « الصحيح » بالثقة ، فلا نرى ما يبرّر ذاك الانقلاب السريع في اطوار الهاشمي الشاب ، ولا كيف انتقل من

« الاسود » على الكتائب السودانية . راجع Caetani, *Annali*, II, index s. v. *Aḥābīš*

١) لا يظهر الامويون في كتابه الأ بظهر بئير الضحك فالازدراء ، مثلًا في ص ٢٦٨ — ٢٦٩ اما الهاشميون فكلّهم ، حتى النساء ، على غاية الكمال ، ص ٢٨١—٢٨٢ ، ٢٦٧

٢) *L'âge de Mahomet et la chronologie de la Sîra*, *Jour. asiat.*, 1911¹, 209-250

٣) راجع *Fāṭima*, p. 23 . وقد استغلّت الشيعة هذا القول لتحلّ ، بين علي وابي بكر ، مشكلة « اول من أسلم » . راجع كذلك ترجمة علي في اسد الغابة ٤ : ٦٦ — ٦٨

٤) *Fāṭima*, p. 2... وفي القرآن (٣٣ : ٥٩) : « قل . . . لبناتك » وهو يفرض اثنتين على الأقل .

حياة هادئة خفية مدة السنين الاولى الى حياة حربية يُظهر فيها ، منذ اول معركة ، ودون ان يمرّ بطور انتقال طبيعي ، صفات فروسية عجيبة ، ومهارة في الكرّ تفرض اختبارًا وتمرّنًا طويلين[1] .

شاء بعضهم ان يرى في تجارة القوافل دافعًا الى النزعة الحربية في باعة مكة وعاملتها ، ومن ثمّ داعيًا الى تمرينهم على استعمال الاسلحة المتنوّعة . واننا لنودّ ان نشاركه هذا البعض بقبول فرضية قد تظهر طبيعية ، لو لم يكن القرشيّون قد تخلّصوا قديمًا من الهمّ العسكري ، في تنظيم القوافل ، فعهدوا الى غيرهم في حفظها والسهر عليها ، كما رأينا . ولم تكن حادثة الحرث بن هشام المخزومي ، المستقيل عن الحرب حبًّا لعائلته[2] ، بفريدة في ذاك المحيط . من الحقّ ان البدو كانوا ينتقمون لأنفسهم من الاهانات المتعدّدة اللاحقة بهم في مصارف مكة ومتاجرها ، فيهزأون بجبن القرشيين ، ويبالغون . ولكن من الحقّ ان تهكّمهم وحده لا يكفي لتبرير هذه الشهرة الواسعة اللاحقة بجبن اهالي مكة . والّا فكيف امكن اعداء محمد من القرشيين ان يتكلوا على اولئك البدو — وهم من عرفوهم بضعف الاخلاص والميل الى النهب والسلب — في الدفاع عن مدينتهم وعن اموالهم ؟ وكيف امكنهم ان يظلّوا مدة طويلة على هذه السياسة الشديدة الخطر ؟

ولنا الشواهد العديدة على ضعف الاخلاص في البدو . نكتفي بالاشارة ، في ذلك ، الى ما قام به بعض الخزاعيين والغفاريين من مصانعة النبي ومحالفته ، بل من التجسّس له على القرشيين[3] بينما كان ذوو قرباهم من ابناء غفار وخزاعة يحاربون ، مأجورين ، في الجيش القرشي . ولنلاحظ ان مجموعات التراجم تتردّد على الغالب في نسبة الصحابة البدو ، تتردّد بين غفار ، وأسلم ، وخزاعة[4] .

١) ولقد أُنكر عليّ عليّ هذا الاختبار ، فيما بعد ، راجع *Fāṭima* p. 29 ، وكيف جرّب ان يدافع عن نفسه ، الاغاني ١٥ : ٤٥

٢) راجع الابيات المنسوبة الى الحرث بن هشام في السيرة ٥٢٢

٣) ولا سيما بنو خزاعة ! اسد الغابة ٤ : ٢٩٠ . وهناك غفاريٌّ يُطلع محمدًا على بعث قريش ، الواقدي ٢٠٣ ، قابل بما في Caetani, *Annali*, II, 1071, 1072

٤) اسد الغابة ٣ : ٢٤٤

وهناك رجل من مشاهير غفار ، التحق اولًا بالامويين ونال لقب حليف ، ثم نراه يُقتل ، في سبيل الإسلام ، لدى ابراج خيبر[1] . وليست هذه الحادثة بوحيدة من نوعها . بل ان البدو ، وكأنهم تعوّدوا هذا التقلقل السياسي ، ينتقلون بسهولة من جيش الى جيش وفقًا لميلهم المتردّد او لمبلغ ارباحهم المالية . وكثيرًا ما كانوا ينالون بركات النبي في مساعداتهم له ، كما نالوها كثيرةً ، مدوّنة في كتب الحديث القانونية ، لانخراطهم في الجيش المدني[2] . واذا بقي من شكّ في تفهّم خُلق القرشيين الحربي ، ونفورهم فطرةً من المعارك والمخاطر ، نراه يتبدّد اذا ما القينا لمحةً دقيقة على ما اتخذه المكيون من تحفّظات واستدراكات عديدة خوفًا من مفاجآت تقلب عليهم عسكرهم المأجور . ولم يكن رئيس ذاك العسكر يتردّد في تهديد القرشيين[3] ، اذا ما ابدى هؤلاء اقل معاكسة .

. . .

ويجب الّا نتوهّم وجود نظام عسكري مستقرّ بثكناته او معسكراته ، وكتائبه الدائمة . انما الخدمة المأجورة[4] ، او الاتفاق ، كان لمدّة الحرب فقط ، بل لمدّة غزوة واحدة احيانًا . هذا اذا لم يترك البدو القتال قبل نهاية الاتفاق ، فيفرّون جماعات ، او ينتقلون الى جيش العدوّ . تتحقق فيهم هذه النزعات الفوضوية بتاريخ حصار المدينة ، وحوادث وقعة الخندق . اما زمن السلم ، فكان الخلط ومَن على شاكلتهم يعيشون في جوار مواليهم من ارباب المصارف القرشية[5] . وينتقلون معهم ، في رحلاتهم من مكة ، ليدافعوا عنهم ، او ليدافعوا عن اموالهم وتجاراتهم ، وفي هذه الحالات كانوا يسافرون مع القوافل كما كان يفعل البرّاد . وهكذا كانت مهمة بني غفار وانسبائهم من بدو تهامة ان يحفظوا

١) اسد الغابة ٣ : ٢٧٠ وكان الغفاريّون عديدين في هذا الحصار .

٢) وقد استفادت اسطورة ابي ذرّ من هذه الحالة ، اسد الغابة ٥ : ١٨٧ — ١٨٨

٣) يهدّدهم بالانتقال الى جيش النبي ، الطبري ١ : ١٥٢٩

٤) اما في ما خصّ عدد الجيوش فلا يتفق المؤرخون . هذا الواحدي يذكر «الفين» وابن سعد يشير الى « اربعة الاف » من الاحابيش والبدو (الطبقات ٢ : ٤٧)

٥) كان الغرباء ، في مكة ، يتمتّعون بخدمة الأشراف ؛ اطلب اسد الغابة ٣ : ٢٨٨ ؛ وعلى الغريب ان يلتجئ الى احد إمّا عن طريق « الحلف » ، او عن طريق « الجوار » .

التجار ، ويسهرون على القوافل القرشية ، يؤجرون اربابها ابلهم وسيوفهم بثمن باهظ بعض الاحيان !

اما شأن الاحباش ، او سودان افريقية ، فكان يختلف عن شأن البدو . كان السودان مفروضا عليهم خراج ، او ضريبة يومية ، يؤدونها الى ساداتهم ، وقد لا يصلون الى حريتهم الا بشق النفس والعمل المجهد في حوانيت المدينة . وهم ، فوق ذلك ، مضطرون مستعدون لتلبية طوالبهم لدى اي طلب . وكان اكثر هؤلاء الموالي من سراة المخزوميين ، ارباب الاموال الذين كانوا يستغلون تجارة الرقيق استغلالهم سائر مرافق الحياة الاقتصادية اذ ذاك . فاذا دنت ساعة الخطر ، وسمع « الصريخ » دوي صوت الانذار[1] ، كان يهتم القرشيون بتنظيم العساكر . وكثيرا ما تطلب هذا التنظيم الاسابيع الطويلة ، بل الأشهر بكاملها . وهو ما حدث في بعثة أحد ، فقد اضاع المستعدون سنة كاملة . وكان يقوم بالتجييش ، او التعبئة ، بعض الأشراف او كبار الصيارفة من اهل مكة ، اولئك الواسعو العلاقات ، الكثيرو المعارف والاصدقاء والاقارب[2] في القبائل البدوية . فيذهبون من حي الى حي في مجاهل تهامة ومناطق الغور ، يستأجرون الرجال[3] . وقد يرتقون جبال السراة في جنوبي شرقي الطائف ، ليستنزلوا الأزد ، وهم من اشجع سكان الحجاز[4] . فيمدون الجميع بالمال الكثير والأسلاب العديدة ، ويرجعون ورءاءهم مجموعة من الابطال والصماليك واللصوص ، « حرشة الضباب » و« أكلة اليرابيع » ، قطاع الطرق[5] « وسراق الحجيج » . بينما كان الباقون في مكة من

١) ابو « منذر الجيش » ، مسلم : الصحيح ١ : ٢١٩ ، قابل بما في ابن الأثير : النهاية ٣ : ١٠٤ ، ٤ : ١٦٦ .

٢) ولقد كان من شيوخ البدو وسادتهم من يشاركون القرشيين بتجاراتهم ، ومنهم من يصاهرونهم ، راجع ابن هشام ٢٧٣ ، ثم *Berceau*, I, 289

٣) ابن هشام ٥٥٦

٤) هم حلفاء الهاشميين وغيرهم من اشراف مكة (اسد الغابة ٣ : ٢٥٠ ، ٥ : ١١١) وحلفاء امية (اسد الغابة ٣ : ٤٠٢) . وقد شهد الحديث بشجاعتهم فورد : « نعم الحي الأزد والاشرون لا يفرون في القتال ولا ينلون » (اسد الغابة ٥ : ٢٢٩) .

٥) كانت القوافل القرشية تمر بمنازل بني غفار (اسد الغابة ٥ : ١٨٧)

السادة يهتمون بتسليح « الاحابيش »[1] وتنظيمهم . وهم ، في تلك الاحوال ، يسترضونهم بالأكل الطيب الذي لا يذوقونه في حياتهم العادية ، فيطعمونهم الخزيرة ، وهي حساء فيه من العجين ومن اللحم المقطّع[2] . ولا تكاد تنتهي الحرب حتى تتفرّق هذه الكتائب جميعها ، والّا فان القرشيين يعجلون في تفريقها ، كما جرى لهم بعد وقعة الخندق . ذلك انهم كانوا يخافون من حرب داخلية تتلو المعركة ، فلا تقل شدّة عليهم من العدوّ الخارجي ، لما تعرّض اموالهم ومتاجرهم ومصارفهم وبيوتهم لطمع اولئك الشذّاذ المسلّحين . واذًا فمن الضروري ان يعود البدو الى منازلهم من سهول تهامة ، والعبيد الى معاملهم في المدينة . وكذلك تعود المطايا ، واكثرها الابل — لأن الخيل من خصوصيات السادة وحدهم[3] — الى المراعي ، او الى اصحابها من البدو الذين استؤجرت منهم ؛ وتعود الأسلحة الى مخازنها الخاصّة في مكة .

ولم تكن هذه الأسلحة وافرة ، بل لم تكن كافية لجميع الاحابيش ، كما قد يُستخرج من قول كعب بن مالك في وقعة أُحد — ولا نرى ما يُخرج صيغة قوله — مشيرًا الى

أحابيش منهم حاسرٌ ومقنَّعُ !(٤)

وقد يكون الحاسرون من اولئك المكلّفين حفظ الأمتعة . الّا ان يقصد الشاعر رماة الحبش المشهورين باستعمال الحراب[5] ، وهي آلات لا يقرّ العرب بانها

---

١) ابن الاثير : الكامل ١ : ٣٤٧ ؛ الاغاني ١٩ : ٧٧

٢) ابو يوسف : كتاب الخراج ١٢٨ ؛ وخاصّة الجاحظ : البخلاء ٢٥٨ ؛ وقابل بما في ابن هشام ٢٧٤ ؛ من ان الخزيرة أكلة مكية . يطبخها الانصار لمحمّد في المدينة ، اسد الغابة ٣ : ٣٥٩ ؛ ٥ : ٤٨٠ ، ٤٨١ ؛ ابن الاثير ؛ النهاية ١ : ٢٩١ — ٢٩٢ ، تطبخها فاطمة للنبي السهودي ١ : ٣٣٣ ، ٣٦٦ ؛ البخاري ٥ : ١١٠

٣) اطلب ... *Fâtima* , p. 82 ; *Berceau*, I, 137 ولم يتفق للعرب مرةً بان نحوا بفرس للقيام « بالمدينة » (اسد الغابة ٣ : ٣٤٣) . وهذا على خلاف ما يزعمه المحدّثون ، فيدلّون على جهلهم بالحياة في القفر وبما يشبه الفرس في نظر سكان البادية .

٤) ابن هشام : السيرة ٣١٤

٥) اطلب القسم الاول من هذا البحث ، ص ١٠

من اسلحة الحرب.

هذا ولا يخفى ان وجود الجيش المسلح ، وان وقتياً ، يفرض وجود مخازن للاسلحة في يد السلطة الحاكمة ؛ ينقول هذا مع شعورنا بصعوبة الاستدلال على وجود الادارات العامة ، والنظم البلدية ، في مكة قبل الاسلام[1]. فليس ، في كل ما بين ايدينا من النصوص ، اشارة واحدة الى عمل الاسلحة والمعدات الحربية ، ولا الى تحفظها ، في تلك العاصمة التجارية ، التي طالما اغدق المؤرخون على سكانها مجاناً صفات الشجاعة والبطش والفروسية . كانت تأتيها جميع الاسلحة من الخارج : من الهند ، واليمن ، والشام . فكان سكانها ، من السراة خاصة ، ومن ورائهم اهل البدو يتفاخرون « بشرفيات » بُصرى[2] وبلاد أدوم او « مشارف الشام » ، وخاصة بالدروع النفيسة الثمينة التي كان يبلغ من افتخارهم بها ، وحرصهم عليها ، أنهم كانوا يتوارثونها أباً عن جد[3] . وقد بلغوا بثمن واحدة منها ، مع الحسام ، مبلغ مائة دينار[4]. وكان اكثر السلب قيمةً ، بعد وقعة بدر ، بضع دروع[5] اصاب علياً واحدة منها حفظها حتى جعل منها صداق امرأته فاطمة بنت النبي . ويذكر الرواة انه كان لصفوان بن امية الجمحي ثلاثون درعاً ، فكان يُعد من اغنى ارباب المصارف في مكة[6].

لم يكن في مكة خزائن عامة للسلاح ، انما كان فيها خزائن خاصة . كل

١) اطلب كتابنا ... *La Mecque à la veille de l'hégire*, p.62

٢) ابن السكيت : تهذيب الالفاظ (طبعة شيخو) ١٦٥ ؛ الاغاني ١١ : ٩١ ، ١٢ : ١٢٥ ، ١٢٦ .

٣) قابل بما في القرآن ٢١ : ٨٠ ، وفيه دورة تبريرية للدلالة على الدرع : « وعلّمناه صَنْعَةَ لَبُوسٍ لكم لتُحصِنَكم من بأسكم فهل انتم شاكرون ! ». وهؤلاء هم الشعراء يفخرون بقولهم أنهم « اكثر دروعاً صافيات » (ابو عجن (Abel) ١١ : ١ - ٣) ؛ وراجع *La Mecque*, p. 191, 204

٤) اسد الغابة ٥ : ٩٣

٥) الاغاني ٤ : ٣٩ . وكان لمحمد درعان ، او درع مضاعفة تغطي الظهر والبطن (اسد الغابة ٥ : ١٨٤) والدرع سلاح وافر الثمن في بلاد العرب ، اسد الغابة ٥ : ٣٥٩ ؛ الاغاني ١٠ : ١٤

٦) ابو داود : السنن (طبعة الهند) ٣ : ٦٩ ؛ ابن سعد : الطبقات ٣ : ١٠٨

بطن ، كل أسرة ، كبني جمح وبني جدعان وغيرهم كان لهم مخازن ومستودعات يجمعون فيها الأسلحة[1] . فيستعملونها ، إبان السلم ادوات واعراضاً للقايضة ، او يسلّحون بها حرس قوافلهم . وهكذا رأينا ابن جُدعان وحده يُسلّح الف بدوي من كنانة[2] . وتشير النصوص الى مبالغ عظيمة من الحراب والسيوف والدروع يحتفظ بها ارباب المصارف المكية . ومنهم صفوان بن امية المذكور آنفاً[3] ؛ ونوفل بن الحرث الهاشمي ، ولم يكن مخزنه ليقلّ كثيراً عن مخزن صفوان . ونحن نعرف انه افتدى نفسه من النبي ، في معركة بدر ، بالف من الحراب[4] . ولم يكن النبي ليغفل عن هذه المستودعات الخاصة في مسقط رأسه ، فاستغلّها كما استغلّ المصارف القرشية في تنظيم جيشه واستعداده لغزوة هوازن ؛ فاخذ من نوفل وحده ثلاثة آلاف حربة[5] .

. . .

ولنعد الى سياسة الحذر والتيقُّظ التي كان يقوم بها المكيون بالنظر الى احابيشهم وحلفائهم من البدو ، فانها تذكرنا بسياسة البيزنطيين تجاه معاونيهم من الغساسنة المكلّفين مراقبة الحدود السورية . وقد كان البيزنطيون ، قبيل المعركة او الغزوة ، يفتحون للغساسنة مخازن دمشق[6] وبُصرى ، فيسلّحونهم ،

---

١) الطبري ١ : ١٦٥٩ ، ١٦٣٠ ؛ الواقدي ٢٥ ، ٣٦ ؛ ابن الاثير : الموضع المذكور . وكذلك كانت الحالة في الطائف ؛ ابو محجن : الموضع المذكور .

٢) الاغاني ١٩ : ٧٦ ، ٧٨ ؛ الواقدي ٢٠٣

٣) ابن حنبل : المسند ٣ : ٤٠١ ، ٦ : ٤٦٥ ؛ اسد الغابة ٣ : ٢٢ . وهذا خالد بن الوليد « جعل دوابّه في سبيل الله . » ابو عبيد : الغريب (المخطوطة المذكورة) ص ١٠٠ ؛ ابن الاثير : النهاية ١ : ١٩٥ ، ٢ : ٢٠٠

٤) اسد الغابة ٥ : ٤٦ . وقد كان مستودع اسلحته في جدّة . وكان المسلمون ، في اول عهدهم ، تعوزهم الاسلحة ولم يكن يصنعها الا اليهود في يثرب . قابل بما في اسد الغابة ٣ : ٤١٦ . وهناك ذكر لعصاً يعطيها النبي احد المتحاربين فتتحوّل الى سيف (اسد الغابة ٢ : ٣) وثلاثمائة درع رُجدت في دومة الجندل (ابن سعد : الطبقات ٢ : ١٢٠)

٥) اسد الغابة ٥ : ٤٥ . ويذكر المصدر نفسه دروع خالد بن الوليد (اسد الغابة ٥ : ٢٢٥ ؛ ابن الاثير : النهاية ٣ : ٥٩ — ٦٠)

٦) لم يرد ذكر لمدينة دمشق في النصوص العربية القديمة . انما كان الذكر لبُصرى ، وهي

ويضاعفون ذخيرتهم العادية من الحنطة . حتى اذا انتهت الحرب نُزعت الاسلحة من البدو ، وأعيدت الى مستودعاتها البيزنطية . تلك سياسة حكيمة دفع اليها اختبار البيزنطيين اخلاق البدو المضطربة المتقلقلة ، فحذروا منهم ، واحتاطوا . وكانوا يبالغون في تلك الحيطة حتى انهم كانوا اذا ما شكوا في اخلاص القبائل قطعوا عنهم ذخيرة الحنطة نفسها[1] ، واقفلوا في وجوههم حدود الامبراطورية .

على نحو من هذه السياسة كانت سياسة القرشيين بالنظر الى احابيشهم وحلفائهم . الا ان هناك استثناء في ما خصّ « سيّد الاحابيش » وبعض « الحلفاء » و « الطرداء » من الذين أُنعم عليهم بلقب « حلفاء قريش » . فان هذا اللقب كان يولّيهم ، من الحقوق المتنوّعة ، حق الاقامة في مكة[2] ، ذاك الحقّ الذي نالوه بتضحياتهم العديدة ، بل بدمهم يسفكونه في سبيل الدفاع عن تلك الجمهورية التجارية . وهؤلاء قتلى بدر فيهم العدد العديد من « حلفاء قريش »[3] . فكان اذاً لقيادة الاحابيش ، مثلي اولئك الغفاريين الفرضيين ، مركز منظور اليه في مكة بل مقام شبه رسمي . وكان لهم ناديهم الخاص[4] ، في النقطة المتوسطة من المدينة ، في فناء الكعبة المقدسة ، لا في ضواحي البلدة من « الشعاب » و « الظواهر »[5] . كان لهم حق الاشتراك بالاجتماعات القرشية ، يتكلمون فيها بجرأة ، وقد يفرضون ارادتهم ، كما جرى لابن الدُجُنّة[6] اذ دافع عن ابي بكر فاتخذه تحت حمايته ، عندما وجد عليه قومه بسبب ما اظهره

آخر محطات القوافل القرشية مما يلي الشام .

١) راجع Noeldeke, *Die Ghassân. Fürsten*, p. 29

٢) ولم يكن ليتزع منهم هذا الحق الا تنازل رسمي يقومون به أمام الكعبة ، راجع اسد الغابة ٣ : ٢٨٦ ، ٤ : ٥٤

٣) ابن هشام ٥٠٧

٤) كان للأسر الاستقراطية انديتها الخاصة قرب الكعبة ، ابن هشام ٨٢٢ ، ٩٩٣ ؛ ابن سعد : الطبقات ١ : ١٢٧

٥) وفيها كانوا يحشرون السوقة ورعاع القوم ؛ الاغاني ١ : ١٥٦

٦) او الدُجَيْنة ، اطلب ابن هشام : السيرة ٢٤٦ ، والاسم مضطرب الضبط .

من الميل للدعوة الاسلامية ، قبل الهجرة[1] . وإبان مفاوضات الحُدَيبية ، نرى القرشيين يختارون سيّد الاحابيش فيوفدونه الى محمد مندوباً مفوَّضاً . وذلك وقت كانت مكة تحاول، بهذه المداورات السياسة ، ستر عجزها الحربي في كفاح النبي . واذ رأت نفسها مضطرّةً الى عقد الصلح ، ولمّا لم تشأ ان تُرسل لمفاوضة محمد احد أشرافها القرشيين، فتدلّ بذلك على اضطرابها وحاجتها الى السلم ، عهدت الى رئيس معاونيها وحلفائها من البدو، وهو « سيّد الاحابيش »، واسمه حُلَيس ابن علقمة . وقد وصفه لنا التاريخ الرسمي رجلًا تقيًّا « يتألّه »[2]، وهي صفة نادرة جدًّا في بدو تهامة الأجلاف . وبينا كانت المفاوضات تجري بصعوبة ، كاد احد موفدي النبي في مكة يلاقي حتفه لولا تدخل بعض بني قومه من خزاعي الاحابيش[3].

وكان سكّان مكة ، اذا ما ارتحل عنهم جيش الاحابيش وسائر المأجورين من العسكر ، بدل ان يتنفّسوا الصعداء لتخلّصهم من هؤلاء الشذّاذ الفوضويين، يوجسون خوفاً .ويعتريهم القلق اذ يرون المدينة ، ولاحامية فيها ، عرضة لأول غازٍ[4] . هكذا كانت عاطفة السكّان من القلق ، بعد ان ارتحلت عنهم تلك الكتيبة المأجورة المنظَّمة ، على غاية ما يمكن من السرعة، المُرسلة لنصرة قافلة بدر . حتى اضطُرّ احد سادة البدو الى تهدئة الخواطر في مكة[5] . ومع هذا ، فلم يكن قد ذهب من « الاحابيش » الاّ عدد قليل لم يقوَ القرشيون على جمع اكثر منه ، فالحقوه بسادتهم المسرعين الى مكان الحادثة . اما الباقون فلم يكن موقفهم على شيء من الوضوح بالنظر الى تلك الحرب الجديدة . أيبقون على

---

١) ابن هشام ٣٤٥ – ٣٤٦ ؛ البخاري : الصحيح ٢ : ٥٩ ؛ وهذا حُليس يلوم ابا سفيان بثبرة قوية في أُحد ؛ الاغاني ١٤ : ٢١ – ٢٢ ، قابل بما في ابن سعد : الطبقات ٢ : ٧٠

٢) ابن هشام : السيرة ٧٤٣–٧٤٥ ؛ الطبري ١ : ١٥٣٨–١٥٣٩ ؛ الاغاني ٤ : ١٩ ؛ ابن سعد : الطبقات ٢ : ٧٠ وفيها ان حُليس « كان يتألّه » وابو يوسف في كتاب الخراج (طبعة مصر) ٢٤٨ يدعوه ابن الحُلَس .

٣) الواقدي ٣٥٣ ؛ ابن هشام ٧٤٥–٧٤٦ الطبري ١ : ١٥٤١ ؛ اسد الغابة ٢ : ١٦

٤) ولم يكن فيها شرطة بلديّة . راجع . . . *La Mecque*, p. 64

٥) ابن هشام ٤٣٣ ؛ الطبري ١ : ١٣٩٦ ؛ الواقدي ٢١–٢٢

عهدهم لمكة ؟ أم تغويهم التجارب فينضمون لبدو الحوار ويهجمون منتقمين من هذه المدينة التي طالما أهانتهم واغاظتهم بطامع اهليهـا ، ومظاهر ترفهم وازدرائهم؟ [1] فكان للمكيين ، والحالة هـذه ، مل. الحق بان يتآلفوا ، ويحاذروا ، قلقين مضطربين كلما فكّروا بتلك الاحقاد المتراكمة المتداعية في المعامل ، والمصانع ، ومحلات الاشغال الشاقة المنتشرة في ضواحي المدينة يملأها العبيد من سودان وغيرهم ، وبين جولهم من « الأبّاقين »[2] المتغلغلين في مجاهل تهامة ومطاوي الغور . حتى اذا قام فيهم رجل ابرز شخصية من عامّتهم ، كأبي بشير[3] مثلاً ، التفوا حوله ، ولجأ اليهم فضخم عددهم كثيرٌ من المظلومين ، من ضحايا النظام الاجتماعي في مكة ، من « المستضعفين » ، على قول « السيرة » ، ومن اولئك الذين لا يرضيهم نظام فيقضون الحياة مفتشين عن غيره ، متفائلين بأيّ انقلاب كان . ثم ينتقل هؤلاء جميعهم الى المدينة ، فيستقبلهم النبي ، ويُرسلهم في « حرب العصابات » كما نقول اليوم ، فيقطعون الطرقات ويسلبون المسافرين ، ويقتلون سادتهم بالأمس[4] ، « لا يظفرون برجل من قريش — على حدّ قول ابن هشام — الاّ قتلوه ، ولا يمرّ بهم عير الاّ اقتطعوها »[5] ، وفقاً لما عُرف من التقاليد المتقادمة في بني غفار !

ومما كان ينشر الذعر بين المكيين في تلك الاحوال الاضطرابية ، اعتقاد قديم متداول بين القرشيين ، ومحفوظ صداه في عدد من الاحاديث ، مفاده ان الكعبة يهدمها الاحباش[6] . وقد ظلّ هذا الاعتقاد راسخاً حتى في الاسلام ،

---

١) الاغاني ٨ : ١٩٠ ، ١١ : ٨٩ ، ٩٥ ؛ ١٢ : ٣٥

٢) كان الكثير من العبيد يلجأون الى الهرب ، « فيأبقون » تارة كين لسادتهم حسرةً وهمّاً ؛ اسد الغابة ٥ : ٥٣٠

٣) وقد تحوّل « صحابياً » فاستلته « السيرة » لتضخيم الحادثة

٤) النسائي : السنن ٢ : ١١٢

٥) ابن هشام : السيرة ٧٥٢ ؛ اسد الغابة ٣ : ٣٦٠ ، ٥ : ١٥٠ . وهناك ذكر لكثير من السودان والعبيد الأبّاقين اللاحقين بمحمّد في اسد الغابة ٤ : ٣٦

٦) الازرقي ١٩٣ ؛ *Chroniken, III, 81* ؛ ابو داود ٢ : ١٢٣ ؛ ابن الديبع : تيسير الوصول ٣ : ١٢٠ ابن الأثير : النهاية ٢ : ١٩٣ ، ٤ : ٢٦٤ ، ٦ : ١٨٨

فحاول ابن الزُبير ، بعد الهجرة بسبعين سنة ، ان يستأصل هذا الوهم من عقول المكيين ، فلجأ الى خطة ساذجة مضحكة عندما اعاد بناء الكعبة[1] . اما ما يهمنا من الأمر فهو ما يدلّ عليه من صدى بليغ في اذهان العرب لانتصار الاحباش عليهم؛ ومن ذعر تلك في عقول المكيين لدى رؤية هؤلاء السودان بالسلاح الكامل . كانوا يحذرون ، في ما لو نزل رجال النجاشي على ساحل تهامة ، ان يلتحق بهم ابناء قومه من الاحابيش . وهو فرض لم يكن من الغرابة في شيء[2].

أوَ لم يهجم ، بعد ذلك ، عدد من الاحباش على ساحل مكة في حياة النبي ؟[3]

أوَ لم تتعدّد هذه الغزوات بعد وفاة النبي، فيضطرّ عمر بن الخطاب الى ارسال حملة خاصّة على بلاد الحبش ، فتهلك كلّيا ؟[4]

أوَلم يقل النبي من حديث : « لا تبعثوا الرابضين الترك والحبشة . اي المقيمين الساكنين ، يريد : لا تهيّجوهم عليكم ما داموا لا يقصدونكم . »[5] ولا يخفى ما في ذكر الترك الى جنب الحبش ، من إشارة الى دور الاتراك المقيل في جيوش الخلافة العبّاسية ، وهو اشبه بدور « الاحابيش » في الجيش القرشي .

يظهر من كل ما تقدّم مركز مكة الحرج بالنظر الى اولئك العساكر المأجورين الذين كانت تتكل عليهم في الدفاع عنها ، وتحذر سيطرتهم عليها، اذا مكّنتهم الظروف . يظهر كذلك تجرّد المكيين عمّا يُنسب اليهم عادةً من صفات الشجاعة والرجولية . وهو ما يؤيّد حكم استرابون منذ العصور القديمة ،

---

١) السيرة الحلبية ١ : ١٨٣ : *Chronicon*, III, 81

٢) راجع الازرقي ١٩٣–١٩٤

٣) ابن سعد : الطبقات ٢ : ١١٨

٤) اسد الغابة ٤ : ١٤

٥) ابن الأثير : النهاية ٢ : ٥٩ : ابو داود ٢ : ١٣٣ : ابن الديبع ٣ : ١١٠ ؛ قابل بما في السيوطي : الموضوعات ١ : ٢٢١–٢٢٢

وقد قال : « العرب تجّار وعساكر ، ولكنهم من اضعف الجنود . »[1] وقد كان لنا ان نشير الى هذه النتيجة في بحث سابق[2] ، وها اننا نساق اليها اليوم في درسنا النظام العسكري في مكة .

ويبدو لنا ان النبي ادرك هذا الأمر وقد وقف بنفسه على نظام الاحابيش الفاسد . ولم يرَ خيرًا في التهوّر بحروب عقيمة ، فنصح قومه بان لا يلجأوا الى السلاح الّا وهم على ثقة من احراز النصر ، وإلّا فعليهم بالسعي في الصلح . اما اذا كانوا على نصر فلا صلح ولا سلم . وهو معنى الآية : « فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وانتم الأعلَون . »[3] وقد رأى النبي انه ادرك هذا التفوّق الحربي ، بعد معاهدة الحديبيّة ، وكان قد عمل على استمالة القبائل التي كانت قريش تتخذ منها ضبّاط الاحابيش[4] . فاستمال اولًا بني خزاعة ، « من عرفنا حقدَهم على قريش ، ثم بني غِفار[5] واقرباءهم من كنانة . وكان انه جرّب شجاعة هؤلاء ، في حصار خيبر ، غاضًّا النظر عن وجود النساء الغفاريّات بين العسكر بصفة بائعات ومرّضات[6] . حتى اذا استفاد من هذه التجربات ، وايقن ضعف المتسوّلين القرشيين ، ويأسهم من الحرب بعد ان تركوا وشجاعتهم الخاصة ، عزم على ان يضرب مسقط رأسه الضربة القاضية ، فينال « فتحًا مبينًا »[7] ، بل « فتح الفتوح » كما يقول الحديث .

---

١) جغرافية اسطرابون ١٦ : الفصل ٤ ، الرقم ٢٢

٢) *Berceau*, I.191 ، وقابل بها في ارميا ٣ : ٢

٣) القرآن ٤٧ : ٣٥ ؛ وقابل بها في ٣ : ١٣٩

٤) وقد احتلّ ابو رهم الغفاري منصب عامل المدينة على مرّتين (اسد الغابة ٥ : ١٤٧ ؛ ابن هشام ٨١٠ ، ٩٠٥)

٥) السهودي ١ : ٥٤٧ . وفيها ان النبي اعتاهم ارضًا في المدينة . وهناك ذكر لمسجد وارض غفارية في المدينة (السهودي ٣ : ٥٤٧ – ٥٤٨) ومرافق غفارية في خيبر (اسد الغابة ٥ : ٥٧٦)

٦) ابن هشام ٧٦٧ – ٧٦٩ ؛ اسد الغابة ٥ : ٤٠٥ ، وهو الشرح الرسمي في الحديث الاسلامي . راجع كتابنا في ... *Bibles*, p. 123

٧) القرآن ٤٨ : ١

وكان من نتائج هذا الفتح انه جعل مكّة ولاية متعلّقة بحكومة المدينة ، فاضمحلّ جيش الاحابيش[1] وما اليه من نظام عسكري قديم ، بل اضمحلّ اسم « الاحابيش » بعدئذٍ في تاريخ المدينة القرشية .

١) ولكن لم تتلاشَ الكتائب السوداء من الجيوش الاسلامية . وهناك عدد كثير من السودان في بلاد العرب (جغرافية المقدسي ، ٩٥) وأكثر العبيد في الحجاز من الحبش (ابن الاثير : النهاية ١ : ١٥٩) ، وحرّاس مسجد المدينة من الاحابيش (السمهودي ١ : ٤٦١) وفي بعض كتب الحديث مدح صارخ للحبش ، كما في السيوطي : الموضوعات ١ : ٣٣٠ ؛ وكتر العمّال ٦ : ٦١٤ العدد ٢٧٣٨ ، وفيه : « قسم الشجاعة عشرة اجزاء فتسعة في السودان وجزء في سائر الناس . . . » (كذا) وظلّ الحجازيون يستخدمون العبيد في الحرس الرسمي حتى عصرنا هذا ، فكان حرس الشريف الأكبر من السودان . قال عنهم ديديه : « وكان من الضروري ظهور وجوه الآبنوس هذه كي لا يظهر العرب سود الوجوه تمامًا » Didier, *Séjour chez le Grand Chérif*, p. 244